للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ – ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

— ١٨ —

« كتب كاتب فى العدد الأخير من مجلة المقتطف الغراء شيئاً بعنوان « سيرة الرافعى » فيه أشياء أعرفها ويعرفها قراء الرسالة، وفيه أشياء لا أعرفها ولم أسمع بها على طول صحبتى للرافعى وما رويت من خبره عن أهله وخاصته، وفيه أشياء أنا على خلافها؛ ولو كان لى أن أعرف مصادر الكاتب إلى هذا العلم لاتهمت نفسى؛ ولكنى أحسب كل مصادره أنه يسرف فى الاستنباط، فرجائى إليه أن يمايز بين أجزاء الكلام ليعرف ما هو له وما هو للحقيقة، فإن فكر المفكر غير حوادث التاريخ، وما تراه أنت رأياً فى الحادثة قد يراه غيرك على نقيض؛ والحياة حادثة وقصة واحدة لاخلاف فيها، ولكنها على اختلاف من ينظر فيها من أهل الرأى والفلسفة قصص وحيوات؛ وإن علىّ للرافعى لديناً يدعونى إلى السهر على تراثه، فمن ذلك أرى علىّ أن أتوجه إلى الكاتب بهذا الرجاء، وأن أتوجه بالعتب إلى الأستاذ فؤاد صروف القائم على تحرير المقتطف، وهو الخبير بموازين الكلام، وهو هو الذى كان للرافعى صديقاً من خاصة أصحابه وأصفيائه » (العريان)

الرافعى الناقد

سأحاول فى هذا الفصل أن أتحدث عن شئ مما كان بين الرافعى وأدباء عصره، وإنه لحديث شائك، وإنى منه لفى حرج شديد. لقد مات الرافعى ولكنه خلف وراءه صدى بعيداً مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية؛ فما أحد منهم إلا له عنده ثأر، وفى صدره عليه حفيظة أوله عليه معتبة. ولقد اهتزت بلاد العربية كلها لنعى الرافعى وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء، إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك، إذ كتب برقية إلى ولده؛ فلا جرم كان بذلك — على ثقافته — أنزهَ خصوم الرافعى وأعرفَهم بالأدب اللائق!

ولقد مضى بضعة أشهر منذ ترك الرافعى دنياه؛ فهل رأيتَ أحداً منهم كتب شيئاً عنه يناله بالمدح أو المذمة؟ وهل رأيت اللجنة التى اجتمعت لتأبينه قد استطاعت أن تحمل واحداً من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأبين الرافعى، أو قل لتأريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع فى مدرجة النسيان؟

ليت شعرى أكان الرافعى من الهوان فى المنزلة الأدبية بحيث لايذكره ذاكر من زعماء الأدب العربى ولما ينقض على موته بضعة أشهر، وبحيث تجتمع له لجنة التأبين وتنفض وتحدد الموعد ثلاث مرات ثم لاتجد من يتقدم إليها ليقول فى تأبين الرافعى فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ...؟

ولكنه هو — رحمه الله — الذى ألّب على نفسه هذه المداوات حياً وميتاً. لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان، لايعرف المداراة ولا يصطنع الأدب فى نضال خصومه. وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس؛ وكان فيه صراحة وصرامة؛ وكان له فى الأدب مذهب وحده؛ وكان فيه حرص على اللغة « من جهة الحرص على الدين، إذ لايزال منهما شئ قائم كالأساس والبناء: لامنفعة فيهما معا إلا بقيامهما معا » وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدتَ له مثلها فى اللغة » ... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً، يهاجم خصومه على طريقة عنترة: يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع ...!

إقرأ له فى أول كتاب المعركة: « ...إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة، إذا هى قامت اليوم بفلان الذى نعرفه، فقد تكون غداً فيمن لانعرفه؛ ونحن نرد على هذا وعلى هذا برد سواء، لا لجهلنا من نجهله يلطف منه، ولا معرفتنا من نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان فى أسلوبنا من الشدة أو العنف، أو القول المؤلم أو التهكم، فما ذلك أردنا؛ ولكنا كالذى يصف الرجل الضال ليمنع المهتدىَ أن يضل، فما به زَجْرُ الأول بل عظة الثانى ... »

* * *

وأول ما أعرف للرافعى فى النقد، مقاله فى الثريا عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥؛ ثم مقاله فى الرد على المرحوم المنفلوطى فى المنبر، وكان نشر مقالاً يعارض به رأى الرافعى فى الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكرى، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعى يقول: « قد وكلت أمر تأديبه إليك ...! »

ثم كانت مساولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة

نشأتها فى سنة ١٩٠٨ ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتي البيان والزهراء ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومى فى سنة ١٩٢١ ؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتور طه حول كتاب زسائل الأحزان فى سنة ١٩٢٤ فى السياسة الأسبوعية ؛ فكان هذا أول ما بينهما ؛ ثم كانت المعارك العنيفة بينه وبين العقاد ، وبينه وبين عبد الله عفيفى ، وبينه وبين زكى مبارك ، إلى ما لا ينتهى من المصاولات بينه وبين أدباء عصره

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بل لعلها أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها لجديرة بأن يؤرخ بها فى تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم ... !

وإننى لأشعر أن على واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإننى لأشعر بجانب ذلك أننى أكلف نفسى بهذا فوق ما أستطيع

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعى كان له هو وحده ، فلا علىّ ما دمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن ... أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعى أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلت بالرافعى شجاعتُه فمات لم يذكره أحد منهم أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفء لهذه العداوات ، ولست لها بأهل ، ومالى طاقة بالدفاع عن نفسى ، ولا لى أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون علىّ نفسى ... !

ولكن ... ولكن من عَذيرى يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ... ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ما رآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكنّ فلاناً وفلاناً اليوم أناسىّ تصول وتجول ، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث . ولكن ... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى تحوٍ فيه أو إثبات . ولكن ... ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الانسان ما كان ...

فهذا عذرى عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثى بما يغضب أو يسوء ، فإن كان لى عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فليحدثونى لأطوى من الحديث ما قد يغضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعى فى هذا الفصل هو تاريخ الأدب فى جيل من الأدباء ، فإن كان من حق أحد أن يعتب علىّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، ومالى عندهم حاجة ولا لهم علىّ يد ؛ فليغضب من يغضب للحق أو لنفسه فلا علىّ من غضبه أو رضاه ، وإنى لماضٍ فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعى وطه

فى سنة ١٩٢٢ كانت السياسة الأسبوعية هى صحيفة الأدب والثقافة ؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين فى الأدب وفى السياسة معاً ؛ ولم يكن بين الرافعي وطه يومئذ شىء يثير ثائرة فى الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكنّ إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة ...

كان طه حسين فى سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق فى الجامعة ، وكان الرافعى الشاعر ماضياً فى الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر ؛ فلما نشر مقاليه المشهورين فى (الجريدة) ينقد بهما أساليب الأدب فى الجامعة ، تنبهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب فى سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعي العالم المؤرخ الرواية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة ، فنفس على الرافعى أن يؤلف كتاباً فى تاريخ آداب العرب فكتب ينقد كتابه ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقررها ثانية فى نقد « حديث القمر » وثالثة فى « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعي كان يطمع فى أن يكون إليه تدريس الأدب فى الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه فى مقاليه الأول والثانى بالجريدة ؛ ولكن طه يومئذ كان طالباً فى الجامعة ، فمن الإسراف فى المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعدُ إلى النفاسة أو المنافسة على كرسى الآداب فى الجامعة ! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية له قدره فى هذا الفصل فلا بد من الإشارة إليه

* * *

ونفخت السياسة الأسبوعية فى الأدب روحاً جديدة ، واتخذت لها أسلوباً فى الدين وفى العلم وفى الأدب ، قال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال . وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب . ثم مضت السياسة بما تكتب وبما

تفصح من صدرها للكتاب، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات، وقديم وجديد، ورفعت في الجهاد راية ...

والرافعي رجل — كان — فيه عصبية للدين، وعصبية للقديم؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة في غد ...

ونال الرافعي رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان، فأحس في نفسه رغبة في الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة، فنشرها طه في السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمي إليه ... ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحدٌ بالعدوان .. وتربّص الرجلان في انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعي رسائل الأحزان، فسعى راجلاً إلى دار السياسة ليهدي إليها كتابه. وهناك التقى الرافعي وطه حسين وجها لوجه ... ونظر الرافعي إلى طه، واستمع طه إلى حديث الرافعي، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة المصارعة، ونفخ الدكتور هيكل بك في صفارة الحكم، وبدأت المعركة. وكانت مشادة حادة خرج الرافعي يتحدث عنها وصمت طه

لمن يا ترى كانت الغلبة؟ الرافعي يقول: أنا ... ولكن طه لا يتكلم، والدكتور هيكل ضنين بالحديث

ومضت فترة، ثم نشر طه حسين رأيه في رسائل الأحزان في السياسة الأسبوعية، فرفع راية العداء وأعلن الحرب. ورد الرافعي يقول:

يسلّم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم!

ثم مضى في رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى، في مقال طويل تقرؤه في ص ١٠٩ — ١٢٢ من كتاب المعركة؛ وطارت الشرارة الأولى، فاندلعت ألسنة النار فما خمدت حتى أحدثت أزمة وزارية، وأنشأت جفوةً بين سعد وعدلي، وأوشكت أن تؤدي بعلي ماهر إلى المحاكمة، وهزّت دوائر البرلمان، ثم انتهت في النيابة العمومية ...

وفي الأسبوع المقبل بقية الحديث عما كان

« شبرا »

محمد سعيد العريان

أبو إسحاق الصابي

للأستاذ عبد العظيم علي قناوي

— ٢ —

لعل أبا إسحق الصابي أصدق مثل يضرب لمن يماري في وجوب نزول الآباء على إرادة الأبناء فيما يحبون من فروع العلوم أو يتزعون إليه من أفنان الفنون، وأن خير ما يؤخذ به المتعلم هو الرغبة الحافزة لا الرهبة القاسية، إذ لا يرتجى كثير نجاح في قسر الأبناء على علم بعينه يريده الآباء، ولا أحذهم بدراسة مخصصة لا يبغيها أولئك ويحتمها هؤلاء، فإن ذلك قاتل للملكاتهم رافع بهم إلى الاستيئاس من النجاح، أو على الأقل الأدنى نازع بهم إلى القصور في كل علم، والتقصير فيما لا يميلون إليه من الفن، وضارب بهم في مهامه لا يعرفون وجه المحجة فيها، وموقع بهم في مفاوز إن نجوا منها فبعد لأي وعناء؛ ولاسيما متى كان ذكاؤهم محدوداً ونبوغهم قاصراً. ورضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حيث يقول: « لا تقسروا أبناءكم على آدابكم، فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم » وإذا كان رضوان الله عليه قد قصد بالتأديب معناه الأخص فهو على وجه العموم أولى، وبشموله كل أدب أجدى

دفعني إلى تلك التقدمة أني رجل تربية من واجبي تنبيه الأذهان إلى ترك الحرية العلمية للتلميذ ينهج فيها نهجه الذي يحبه. فلقد حاول أبو الحسن والد إبراهيم الصابي تعليمه منذ نشأته صناعة الطب وحذق الحكمة سيرا على سنن آبائه نهجا على منهج أسلافه، إذ كان جلهم رجال طب وحكمة. وبذل في سبيل ذلك غاية الجهد، وجهد لتنفيذ إربته إلى أقصى غاية، وقد وجد من ابنه سمعاً ومن إبراهيم مطيعاً، لا عن رغبة وحب، بل عن رهبة وأدب، وقسر وزجر. ولو غير أبي إسحاق لرمى بكلام أبيه عرض الأفق، ولكنه كان باراً بأبيه عالماً بواجبات الأبوة لا يعصى له أمراً وإن جاء قاسياً، ولا يخالف له رأياً وإن بدا له رأياً خاطئاً، وإن هذه النزعة فيه نزعة البر والحدب والحب والولاء ليعبر عنها شعره تعبيراً قوي الأسر صادق النزعة، فهو